عيش الكفاف في إنتاجنا الفكري

بقلم الدكتور نقولا زيادة

كثر التحدث عن الانتاج الفكري في العالم العربي ، وما يتخبط فيه من اضطراب وفوضى ، وما تحيط به من أزمات مستحكمة خانقة . وتشعب الحديث بين ايدي الكتّاب ، واستغرقوا في شعابه . ولعل هؤلاء الكتّاب يكونون قد استوفوا من البحث نواحيه ، او لعلهم يكونون قد نفذوا الى مغلقاته فاستجلوها ؛ ولكن يخيل الينا ان هذا الموضوع له من تعدد جهاته ، واتساع جبهاته ، ما يتيح الخوض فيه مرة بعد مرة ، ومحاولة سبر غوره من غير زاوية واحدة .

وثمة ظاهرة بدت لنا حرية بان تكون موضوع حديث وجدل ، والجدل احب الينا من الحديث . إذ انه سبيل تبادل الرأي ، وصقل الفكرة ، وتركيز المشكلة ، بحيث يمكن ان تتضح وتتبلور . وهذه الظاهرة هي ان الانتاج الفكري تكاد تطغى عليه فكرة « العيش الكفاف » . فنحن عندما نستعرض هذا السيل من الانتاج الذي تقذف به المطابع ، والذي يبدو لنا ، في الظاهر ، كأنه يكاد يغرق المجتمع بخصبه — هذا السيل عندما نستعرضه مدققين باحثين دارسين نجده على غير ما يبدو ظاهراً . ظاهره الخصب — على أساس انه كثير — ولكن واقعه العقم . قد يبدو انه دسم ، ولكنك عندما تحاول ان تعتصر منه ما فيه تجده يكاد يكون خلواً من اي دسم .

اذا صح ما ذهبنا اليه فليس من الغرابة في شيء ان يكون هذا الذي يصح ان يسمى خصباً من القلة بحيث انه لا يكفي إلا لاشباع القليل من رغباتنا العقلية ، وجوعنا الذهني . ولذلك نحن دوماً في جوع . وإنتاجنا الفكري يمثل حالة العيش الكفاف . والعيش الكفاف يكاد يكون دوماً قليل الأدام ، قليل السُّعر (كالوري) الغذائية . وهكذا إنتاجنا الفكري . إدامه قليل ، قيمته الغذائية محدودة ، ولذلك يتركنا في حالة من الجوع المستمر .

وقد ارتفع مستوى المعيشة العقلية في العالم العربي ، وازداد جوع القارىء العربي ، لكن اولئك المشرفين على إمداده بحاجته من الغذاء والسعر العقلية اللازمة ، لم يستطيعوا مجاراته .

وعيش الكفاف في الحياة العقلية يقتضي ، بالاضافة الى ما ذكرنا من قلة الدسم الفكري ، ان يكون الانتاج الفكري ، إذا صحت تسميته ، ابن يومه ؛ يعالج المشكلة من يوم الى يوم ، دون ان يتطرق الى القضية من حيث هي أمر له جذور في صميم الحياة والفكر والأدب . وهكذا بدل ان تعالج القضية وقد أنضجتها نار الروية ، تُعرض وقد لوحتها نار البديهة .

ومن هنا كان الانتاج الفكري ايضاً يهتم بالكم لا بالكيف. فالكم ينتج عن الرغبة في تمكين الناس من الحصول على عيش الكفاف . يكون كبيراً ضخماً لأن القش فيه كثير والورق فيه أكثر . أما الكيف فهو نتيجة سبر الغور والتعمق والدقة. وهذا لا يتأتى إلا لمن أعد نفسه لذلك ، ثم بذل من وقته وجهده ما يمكنه من الانتاج الصحيح الصالح .

وعيش الكفاف العقلي يبدو كذلك في التفكير المحدود ، لا السطحي فحسب ، بحيث نلاحظ ان الكثير مما تدفع به المطابع يدور حول نقط صغيرة في دوائر تكاد تكون محدودة . مع ان قضايانا ، والفكرية منها خاصة ، بحاجة الى ان تعالج في أفق واسع . ولكن اتساع الأفق لا يتيسر إلا لأولئك الذين سمحوا لأنفسهم بان يكون اطلاعهم كبيراً ، وتفكيرهم حراً من قيود الحياة الاجتماعية .

ولعل من اكثر الأمور دعماً لظاهرة عيش الكفاف في حياتنا الفكرية هو هذا النقص في الاخلاص العقلي الذي يتجلى في الكثير من إنتاجنا الفكري . فنحن ينقصنا الاخلاص العقلي ولذلك يبدو هذا الذي ينتجه الأدباء والمفكرون خالياً من نبضات الحياة وما فيها من قوة دفع وإنبات وإحياء .

يخيل إلينا ان الكثرة من منتجينا في الحياة الفكرية يصلّون يومياً « خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » . وليتهم يغيرون هذه الصلاة .

نقولا زيادة